الصوفية والاسلام

للدكتور محمد غنيمى هلال
أستاذ الأدب المقارن
بجامعة القاهره

عرف الغزالى التصوف بأنه « عمل مبنى على العلم ، وأنه قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله ، وتحليته بذكر الله »

فالتصوف إذن تأمل دائم فى النفس ورعاية كاملة لتطبيق مبادىء العقيدة حتى توصل المعتقد عن طريق التأمل والعمل إلى تنقية سريرته فيقرب من الله ، ويبتعد عن سواه .

والتصوف بهذا المعنى ليس بدعا فى الدين الاسلامى ، بل لا يتصور أن يخلو منه مجتمع يدين بعقيدة الايمان بالله وبالدار الآخرة ، وقد كان التصوف فى نشأته عربيا إسلاميا تركزت مبادؤه حول آيات القرآن ، وفهم المسلمون لعقائد الدين ونصوصه ، فقد اتخذوا من هذه العقائد محورا تدور حوله أفكارهم فى عالم الغيب وفى اتخاذ هذه الحياة طريقا للقربى من الله ، زاهدين فى كل ما يبعدهم عنه ، متعمقين فى فهم ألفاظ القرآن وإشاراته ، وبخاصة إذا كان موضوعها العالم الغيبى ، أو الفيض الالهى .

فمن ذلك أن الرسول سئل عن الشرح فى قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » فقال : « هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب » فقيل : وما علامته ؟ فقال : « التجافى عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود »

وقد كان الرسول يقوم الليل تقربا إلى الله وجهاداً للنفس ، وهناك آيات تحث على تلاوة القرآن ، وتفهم معانيه « قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا »

وكـذلك الآيات التى تشرح المقصود من الأوامر الدينية ، وأن غاية الشعائر الدينية ، هى تنقية السريرة وسلامة القصد ، وإذا حاد المتعبد عن هذه الغاية فقدت العبادة روحها « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » : « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى »

وكانت غاية المتصوفين الأول هى حمل النفس على الأشق ، والعزوف عن منع الحس رجاء التعرض للفيض الالهى الذى حظى به الأنبياء المقربون نتيجة لما أخذوا به أنفسهم من رياضة النفس ، وقد دعا القرآن إلى الذكر والرضا والطمأنينة وطهارة النفس والاخلاص .

وقد اتخذت هذه التعبيرات ونظائرها اصطلاحات صوفية بعد أن توسع فى معناها ، واكتسبت معانى وأفكاراً جديدة وصارت إشارات إلى حقائق نفسية وعقلية مختمرة فى نفوس المتصوفة مما سهل على الشعراء والكتاب تسجيل تجاربهم وتدوين مشاعرهم فى تعبيرات واضحة ذات طابع فنى خاص .

وفى القرآن كذلك من الاشارات والصور ما يفتح أمام الفكر مجالا فسيحا للتأمل فى الأسرار وما يفيض به عالم الغيب من إشراق روحى ونور .

فمن ذلك قصة موسى عليه السلام مع ذلك العابد الذى علمه الله من « لدنه » علماً كان يشرح به أفعاله على غير المألوف إذ كان يأتى ما ظاهره معصية الله وهو فى الحق طاعة له وتنفيذ لارادته .

ومثل المعراج بالرسول إلى السماء ، وأن الرسول قرب من الله فكان « قاب قوسين أو أدنى » وإليك أيضا ما يصور به القرآن ما يدور من حوار فى الدار الآخرة بين أهل الجنة وأهل النار يلتمس فيه الكفار النور من المؤمنين « وإذ يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب »

هكذا كان يدور تفكير المتصوفة الأول من المسلمين حول هذه الآيات

ونظائرها ، وكانت مبادئهم فى جملتها تنحصر فى الورع والاعتكاف والعزوف عن مغريات المادة لكى يكونوا أقرب إلى الله وليتعم الله عليهم بما أنعم به على أنبيائه . وكانوا لا يرون تنافيا بين النسك على هذا النحو وبين مبادىء الدين ، إذ الاعتكاف وفرض نوع من الرهب أيام الحج مما يقره المسلمون جميعا ، وما التنسك طيلة القرون الأولى للاسلام فى أقسى حالاته إلا امتداد لهذين المبدأين .

وكان من الصحابة من هو على تلك الحال من النسك والزهد ، كأبى الدرداء هويمر بن زيد الخزرجى ، وأبى ذر الغفارى ، وقد تضاعف عدد هؤلاء النساك فى التابعين وبخاصة بعد الفتن السياسية المختلفة التى ربما كانت عاملا من عوامل اليأس فى قلوب كثير من المؤمنين فى المجتمعات الاسلامية ، فرغبوا عن الاشتراك فى أمور الدنيا ومالوا إلى الزهد طلبا للسعادة فى العالم الآخر ، عالم الكمال والخير ، فكان زهدهم نوعا من الضيق بما يزخر به المجتمع من مآس ، مثل همام بن الحارث وأويس القرنى ، وعلقمة بن قيس النخعى ، وكانت البصرة أغنى الأمصار بهؤلاء الزهاد والنساك فى القرن الأول للهجرة ، فمنهم عامر بن عبد الله ابن عبد القيس العنبرى . وبكر بن عبدالله المزنى ، والحسن البصرى ، وكان فى البصرة من هؤلاء المتصوفة منهم ذو لسانين عربى وفارسى كأسرة الرقاش من أصل فارسى ، وكانت تجيد العربية إجادتها للفارسية ، وكموسى الأسوارى الذى كان يشرح القرآن بالعربية والفارسية .

ومما يستحق الذكر أن هؤلاء الوعاظ والنساك الذين كانوا القدوة الأولى للمتصوفين فيما بعد ، كان بعضهم من السنية ، وبعضهم من الشيعة أو من المعتزلة . إذ كانت مبادئهم فى العبادة واضحة ، تستمد أصولها من القرآن والحديث ، وتنحصر فى جملتها فى الزهد والورع وترتيل القرآن والعكوف على عبادة الله .

محمد هلال